[سورة المؤمن وهي: سبعون وآيتان][1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾

قرئ بفتح الحاء وكسرها[2]، وبين الفتح والكسر، ويقرأ بفتح لالتقاء الساكنين، وبالفتح وبإمالة حاء، وبفتحها وتسكين الميم [3]؛ لأنه أخف، نحو: أين، ويجوز أن تكون حركة الإعراب بإضمار: اقرأ، ومنع صرفه للتأنيث والعلمية، أو على أنه أعجمي كقابيل، والسكون لكونه اسما مجردًا، فيكون موقوفًا، وإذا جعل اسم السورة فـ ﴿تَنزِيلُ﴾ خبره، و﴿تَنزِيلُ﴾ مصدر أريد به المنزَّل، والكلام في أمثاله قد سبق، غير أنه روي أن أعرابيًا سأل النبي عليه السلام فقال: ((**بدء أسماء وفواتح سور**))[4].

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من (ج، ح)، ليست في الأصل ولا في باقي النسح . وورد اسمها في (ح): (المؤمنون).

(٢) قرأ عاصم في رواية حماد ويحيى عن أبي بكر، وحمزة والكسائي وخلف بكسر الحاء، وقرأ الباقون بفتح الحاء. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٨).

(٣) ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٣٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص ٤١٧)، الكشاف للزمخشري (١٥٢/٤).

(٤) أورده الثعلبي في الكشف والبيان (٢٦٣/٨)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٥٤٥/٤)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٣٢٤/١٨) عن أنس رضي الله عنه، بلفظ: أن أعرابيًا سأل النبي ﷺ: ما حم، فإنا لا نعرفها في لساننا؟ فقال النبي ﷺ: ((**بدء أسماء وفواتح سور**)). ولم أقف على من أخرجه.

ثم بيَّن المنزَّل، وسبق في ياسين وجه مثل هذا الوصف، وأيضًا لئلا يتهاون فيه ويبالغ في استماعه وما فيه من الإعجاز والحكم البالغة.

وتقديم ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ يناسب مذهب من قال: أول العلم بالله كونه قادرًا، ومعناه: القادر الذي لا يساويه أحد في القدرة، وفهم ذلك من الغالب المطلق، وفيه إيماء إلى إبطال قول الكفرة حيث قالوا: هو من تقوُّلِ محمَّد، فإن الغالب لا يُغلَب [1]، ولا يمتنع عليه، ولا يخفى عليه شيء لسعة علمه.

وتقديم وصف ستر الذنوب وعدم تفضيح صاحبها وقبول توبة المذنب، أو غافر الصغير وقابل التوب عن الكبير، أو إسقاط العقاب وإيجاب الثواب لغلبة الرحمة وسبقها، ويدل عليه أيضًا بعد ذكر الوعيد بشدة عقابه عقَّبه بكونه ذي النعم، أو القدرة أو الغنى أو الخير أو المن والفضل.

و﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ يدل على مغفرة الكبائر قبل التوبة؛ لأن الستر يكون للشيء الباقي، وهي بعد التوبة مرتفعة. وأيضًا ﴿قَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ يكون تكرارًا.

ولا يجب على الله قبولها كما قالت المعتزلة؛ لأنه ذكر في معرض المدح، ولو كان واجبًا لم يكن فيه زيادة تمدح، فإن ذلك حاصل لكل من أتى بواجب.

و﴿غَافِرِ﴾ و ﴿قابل﴾ إما بدلان أو صفتان على أن وقع لفظ الماضي موضع المستقبل، مثل: نادى، فيكونان معرفتين، أو من شأنه الغفران، فالمراد ليس زمانًا مخصوصًا، وتكون الإضافة حقيقية.

﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ يحتمل إرادة مشدِّد العقاب، أو الشديد عقابه، فحذفت اللام للازدواج، وأمن الالتباس، فتكون ثلاثتها صفات. ومما يدل على اعتبار الازدواج قولهم: ما يعرف سُحَادِلَيه من عُنادِلَيه [2]، حيث ثنى الذَّكَر لأجل الأنثيَين للتناسب. قال الخليل: ما

---

(١) في (ن): (لا يغالب).

(٢) السُّحادِلُ: الذَّكَرُ، وهو لا يَعْرِفُ سُحادِلَيْهِ من عُنادِلَيْهِ: ثُنِّيَ لمكانِ عُنادِلَيْهِ ، وهما الخصْيَتانِ . قال =

يحسن بالرجل مثلك، وبالرجل خير منك، على قصد اللام، وعكسه الجماء الغفير، فإنه في نية طرح اللام؛ لأن الحال تكون نكرة[1].

و﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ يصح فيه البدل والوصف، وثلاثتها أبدال لأنَّ جعْلَ [٧٦٩/ب] البعض بدلًا مشوِّش للنَّظم، لا سيما في التنكير دلالة على الشدة، فيكون سببًا لاختيار البدل على الصفة، وذكر الواو في ﴿قابل التوب ﴾ دون ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ لظهور المغايرة فيه، وللإشعار بالجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة، وذكر التوحيد بعد هذه الصفات لبيان لزوم العبودية، حيث لم يشاركه فيها غيره، وذكر الواو في ﴿قابل﴾ للدلالة على أن توبة التائب تكون طاعة له ونجاة من الذنوب؛ لأن الواو للجمع، وذكر المصير للترغيب في العبادة والترهيب من العصيان.

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾

هذا الكلام كالنتيجة لما سبق؛ لأنه لما تقرر أمر التنزيل وأنه من الله، لزم التسجيل بكفر المجادل فيه بالباطل والطعن فيه القاصد به إدحاض الحق؛ لتحقق معانيه وكشف مشكلاته، وإبطال متمسك أهل البدع ومطاعن الملاحدة، كما يشهد [2] في هذا الكتاب فهو من أعظم الطاعات.

= الزمخشري: "فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع". ينظر: الكشاف (١٥٣/٤)، القاموس المحيط (ص١٣١٠).

(١) ينظر: الكتاب لسيبويه (١٣/٢).

(٢) في (ن): (يشاهد).

وتنكير الجدال في قول النبي ﷺ: ((**إن جدالًا في القرآن كفر**)) [1] يدل على ذلك، وهو في الحقيقة صورة الجدال لا حقيقته.

ومعنى ﴿لَا يَغُرُّكَ﴾: أن إمهالهم مدة يسيرة متقلِّبين في البلاد للتجارات المربحة في اليمن والشام، أو رحلتي الشتاء والصيف؛ فإنهم لكفرهم سيأتيهم العذاب كما كان حال الأمم الماضية لما تحزبوا، أي: صاروا أحزابًا في تكذيب رسلهم، وقصدَت [كل] [2] أمة قتلَ نبيهم وإهلاكَه أو أسرَه، من قولهم: للأسير أخيذ، أو ليبطشوا به من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢]، وجادلوا معه بما لا أصل له ولا حقيقة، ليزيلوا به الحق الذي جاء به الرسل، فأخذهم الله بالإهلاك في الدنيا، والعقوبة في العقبى.

و(كيف) إما سؤال عن تحقق العقاب أو عن صفته، وهو تقرير فيه تعجيب، وكانوا يمرون على ديار ثمود وغيرهم فيرون آثار هلاكهم، فيعلمون كيف عقابي إياهم بالاستئصال، و﴿أَنَّهُمْ﴾ تمام الجملة بدل من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، فمحلها الرفع.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾

أي: كما أهلكتُ أولئك أُهلِك هؤلاء الذين كفروا من قومك، أي: مثل ما حقَّت كلمة العذاب على أولئك حقَّت على هؤلاء أيضًا كلمتي، و ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، أي: كما تحقق إهلاكهم في الدنيا بعذاب الاستئصال كذلك حق عذابهم بالنار في الآخرة، وعلى الأول الرفع ببدل الاشتمال بدل الكل أو الاشتمال نظرًا إلى اللفظ أو المعنى.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢/٤٧٦) رقم (٧٥٠٨)، وأبو يعلى (١٠/٣٠٣) رقم (٥٨٩٧)، والحاكم (٢٨٨٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/١٣٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ، قال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ج).

وفيه دليل على أنهم لا يتمكنون من الإيمان، ولا قدرة لهم عليه؛ لأنهم تمكنوا [1] منه لزم تمكنهم من تغيير علم الله.

ولمَّا فرغ من حال الأشقياء شرع يبيِّنُ حالَ السعداء، وأنهم وإن كانوا في مقاساة عداوة الكفار، فالملائكة الذين هم من أكمل المخلوقات يبالغون في المحبة والنصرة، أعني حملة العرش؛ فإنهم من أشرف الملائكة.

روي أن النبي ﷺ قال: ((**لا تتفكَّروا في عظمة ربكم، ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة، إنَّ خلقًا من الملائكة يقال له: إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرق رأسه من سبع سموات، وإنَّه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنَّه الوصع**))[2]، وهو طائر صغير[3].

روي أن الله أمر جميع الملائكة بالسلام على حملة العرش بالغداة والعشي[4].

روي أن الله خلق العرش من جوهر أخضر، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام[5].

---

(١) هكذا في جميع النسخ، ويظهر أن هناك سقطًا، ولعل صواب العبارة: (لأنهم إن تمكنوا).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦٦/٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه، وقال: "تفرد به إسماعيل ابن عياش عن الأحوص عن شهر بن حوشب عن ابن عباس ، ورواه عبد الجليل بن عطية عن شهر عن عبد الله بن سلام"، وقال الزيلعي في تخريج الكشاف (٢١٨/٣): "غريب".

(٣) الوَصْعُ، والوَصَعُ، والوَصِيعُ: الصغير من العَصافِير، وقيل: الصغير من أَولاد العصافير، وقيل: هو طائر كالعُصفور، وقيل: يشبه العصفور الصغير في صغر جسمه، وقيل: أَصغر من العصفور. ينظر: تهذيب اللغة (٥٤/٣)، لسان العرب (٣٩٥/٨)، مادة: (وَصَعَ).

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف (١٥٦/٤)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٣٣٠/١٨)، ولم أقف على من أخرجه.

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٥٦/٤)، والجامع لأحكام القرآن (٣٣٠/١٨)، وفيهما: قيل: خلق الله العرش من جوهرة بيضاء...

قيل: حول العرش سبعون ألف صف قيام، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مئة ألف صف، قد وضعوا الأيمان على الشمائل[1]. ويقال: الكروبيون أعلى الطبقات، وأوَّلُهم وجودًا.

وكونهم حول العرش حفيفُهم حُمِل على الحفظ والتدبير، أو القرب والمكانة من الله، وتوسيطهم في نفاذ أمره. والثاني أولى.

وجعل تسبيحهم وهو ذكر الله بجامع الثناء بصفات الجلال والإكرام، والحمد حالًا منه، أي: ملتبسين به؛ لأن مقتضى التوفيق للتسبيح.

ثم الإخبار عنهم بالإيمان للدلالة على فضل الإيمان وشرف أهله؛ ولذلك خص استغفارهم بالمؤمنين، والاستغفار عقيب الوصف بالتسبيح على طريقة التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله.

و(العرش) يقرأ: بضم العين[2].

وفائدة قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ -والمسَبِّح لا بد وأن يكون مؤمنًا على ما قال صاحب [٧٧٠/أ] "الكشاف"[3]-: أنَّه التنبيه على أنه لو كان الله على العرش لم يكن إيمانهم موجبًا للمدح؛ لأن الإقرار بالشيء الحاضر لا يوجب المدح، كالإقرار بالشمس وضوئها فإنه لا يوجب مدحًا. قال في "المفاتح": "ورحمه الله، فلو لم يحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه شرفًا وفخرًا"[4].

ولقائل أن يقول: هذا الكلام من الإمام في غاية العجب؛ لأنه كيف يمدحه بكلام غير موجه، وملازمه ممنوعة؛ أما أولًا: فلأن كونه سبحانه على العرش لا يستلزم أن يراه الملائكة؛

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٥٦/٤)، والجامع لأحكام القرآن (٣٣٠/١٨-٣٣١).

(٢) عن ابن عباس. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٣).

(٣) الكشاف للزمخشري (١٥٦/٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٣٤/٢٧). وهذا منه -رحمه الله وعفا عنه- انتصارٌ لمذهب المعتزلة الفاسد في تأويل علوِّ الله تعالى واستوائه على عرشه.

لجواز عدم شرط أو وجود مانع، ولئن سلمنا فالإيمان المطلوب ليس بمجرد الوجود، بل به وبجميع الصفات الإيجابية والسلبية، هذا وإن من الجائز أن يكون معرفة الملائكة بوجود الله أعظم من معرفة من يشاهد شيئًا بعينه كالإدراك العقلي الذي لا يحتمل الغلط، فكما يمدح بهذا النوع من الإيمان فلم لا يمدح بذلك الإيمان.

نعم، قوله: فائدة إظها[ر] [(١)] شرف الإيمان والترغيب فيه كوصف الأنبياء بالصلاح مناسب، وقد تمسكت المعتزله بتمام الآية على أن الشفاعة لا تؤثر إلا في حصول الثواب للمؤمنين دون أصحاب الكبائر ليقيد الاستغفار بالإيمان واتباع السبيل، فإن التائب من الكفر لا يقال: إنه متبع السبيل، لا سيما وقالت الملائكة: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾، وهذا لا يليق بالفاسقين؛ لأن خصومنا لا يقطعون على الله وعدهم الجنة، فثبت أن الشفاعه لأهل الطاعة. وينبغي أن تكون شفاعة الأنبياء لعدم القائل بالفرق.

والجواب عن قوله: إن التائب عن الكفر لا يسمى متبعًا سبيل الله ممنوع؛ لأن سبيل الله: الدين والشريعة، والمؤمن بالله متبع لسبيله، لا سيما والتوبة مطلقة، تصدق بكل ما يسمى توبة، كما يصدق الضارب بضرب واحد، ولا يتوقف على أنواعه، ومن هذا يعلم أن الآية دليل الأصحاب لدلالته على أنهم يستغفرون لكل من آمن، وسبق الدليل على أن مرتكب الكبيرة مؤمن، لا سيما وطلب المغفرة إلا لإسقاط العقاب، والنفع الزائد لا يسمى مغفرة، ولا يصح الحمل على إسقاط الكبيرة بعد التوبة؛ لأن الخصم يوجب ذلك على الله سبحانه، وعن بعض المحققين أن استغفارهم لخبر قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] ثم استغفارهم هو الشفاعة، والحمل على التوبة وإلهامهم الخير، وفيه إشعار بأن المشاركة في الإيمان تقتضي النصح والشفقة، وهو أقوى المناسبات كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (أ، ح).

وأما نيل رحمة الله كلَّ شيء فقد حُمل على أن غير الله وجوده من الله، وهو محض الرحمة، وأصل التركيب: وسعت رحمته وعلمه، فغيَّر ليدل على الاستغراق في الوصف بالرحمة، وتقديمها لأنها المقصودة بالذات.

﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مقدر بـ"يقولون"، وهذا المضمر إما بيان لـ ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مرفوع المحل مثله، أو حال، أو جعل الرحمة والعلم تمييزًا يفيدان أنهما اللذان وسعا لتعالي الله عن أن يكون محل الشيء.

وذكر الرحمة والعلم لما اقتضى أن يشمل ما بعد الفاء عليهما كان المعنى: فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق، وذكر الوقاية عن عذاب الجحيم يشعر بشدة العذاب، حيث صرحوا به بعد العلم به مجملًا، وتقديم الوصف بسعة الرحمة على الدعاء على وفق السنة، كما فعل الخليل عليه السلام.

والآية تدل على أن الله عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها كلِّيها وجزئِيّها، ولولا ذلك لم يكن في الدعاء فائدة.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

يقرأ: ﴿ جَنَّةَ عَدْنٍ ﴾[1]، و ﴿ صَلُحَ ﴾ بضم اللام [2]، ﴿ وَذُرِّيَّتِهِم ﴾[3]. وإن عطف ﴿ مَن ﴾ على ضمير ﴿ أَدْخِلْهُمْ ﴾ ففائدته كمال سرورهم، وإن عطف على ضمير ﴿ وَعَدتَّهُمْ ﴾ فلبيان عموم الوعد.

(١) عن الحسن والأعمش. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٧).
(٢) عن ابن أبي عبلة. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٧).
(٣) عن عيسى الكوفة. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٧).

وذكر ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ليعلم أنه قادر على ما يريده، و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لبيان أن لا يفعل شيئًا إلا بمقتضى الحكمة، ومنه الوفاء بالوعد.

و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إما العقوبات، أو جزاء السيئات، فالأول مجاز، والثاني إضمار، وهو تعميم بعد تخصيص، نظرًا إلى قوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]، أو مخصوص بمن صلح، أو المراد أن يقيهم المعاصي في الدنيا، أو الثاني دعاء للآباء، ومن بعدهم.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في الدنيا، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ يوم القيامة، هكذا قيل.

ولقائل أن يقول: يجوز أن يراد بالسيئات جزاؤها، واليوم يوم القيامة، [ومن] (١) وقاه الله جزاء سيئاته يوم القيامة، فقد أدركته رحمته.

وإنما كان فوزًا عظيمًا حيث وجدوا بأعمال حقيرة في أيام يسيرة نعيمًا دائمًا، ومُلْكًا لا يصل إلى كماله العقول.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [٧٧٠/ب]

هذا رجوع إلى حال المجادلين، وأصل المعنى: أنهم إذا شاهدوا القيامة مقتوا أنفسهم الأمارة بالسوء حيث أمرتهم بالإصرار على الكفر، أو مقتهم الرؤساء على طريقة: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، والمراد: قتل بعضهم بعضًا، أو يمقتون أنفسهم حينما يقول إبليس بعد أن حطهم في النار: لوموا أنفسكم (٢)، والتقدير: أن الخزنة تقول لهم: مقت الله إياكم

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ =

في الدنيا هذا الوقت أشد من مقتكم [والمقت: أشد البغض، ومن الله أشد الإنكار والزجر، و﴿إِذْ﴾ ظرف المقت الأول، أي: مقت الله ذلك الوقت أشد من مقتكم] [1] الآن أنفسكم، وقيل: لا يجوز أنه ينصب به لأنه قد وقع الخبر معترضًا بينه وبين معموله، وأما الثاني فإنما لم يجز لأن مقتهم أنفسهم في الآخرة ووقت الدعاء في الدنيا، إلا أن يقال: من باب الصيف ضيعت اللبن، فهو مثل لمن فرط منه ما يقتضي فوات نفع في المستقبل.

والإماتة فسرت بمعنيين: يصير الحي ميتًا بعد أن كان حيًا، وإيجاد الشيء ميتًا كما يقال: سبحان من صغر البعوضة، وليس ثمة نقل من كبر إلى صغر، بل المراد الإنشاء على الصغر، ولما كان المختار قادرًا على الصغر والكبر، وهما متساويان في القدر، والأكثر على أن ذلك دليل على عذاب القبر؛ لأنه لا بد من حياة أُخرى بعد هذه ليعقبها موت آخر، وقيل: بل هو عدم الحياة، أولًا: عند كون الإنسان نطفة. والجواب: أن ذلك لا يسمى إماتة.

وهذا وإن كان كلام الكفار، لكن لما لم يكذبوا دل على حقيّته. ولا يشكل بأنه يلزم أن يكون الحياة ثلاث مرات؛ لأن المقصود تعديد البلاء: الموتة الأولى، والحياة في القبر، والثانية، والحياة في القيامة، وأما الحياة في الدنيا فليست من أوقات البلاء، وأيضًا من المحتمل أن يستمر حياتهم في القبر، إما في السعادة أو الشقاوة.

واعتذر في "المفاتح"[2] بأنهم يكونون من جملة من استثناهم الله من الصعقة.

= ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ن).

(٢) مفاتيح الغيب (٤١/٢٧).

و﴿ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ صفة لـ ﴿ أَمَتَّنَا ﴾، والفاء في ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا ﴾ لأنه كالمسبب عن الإحياء والإماتة؛ لأنهم لما شاهدوا الإحياء بعد الإماتة مرتين لزمهم الاعتراف بالحشر، فكأنهم اعترفوا بذنوبهم التي من إنكار البعث وارتكاب المعاصي التي نشأت من ذلك الإنكار.

وتنكير الخروج والسبيل للإشعار بأن المطلوب الخروج ولو بعد بطوفان السبيل بأي وجه كان هو المقصود.

فأجيبوا بمنع ذلك بسبب الكفر عند دعاء الله وحده -و ﴿ وَحْدَهُۥ ﴾ في تأويل متوحّدًا، أو أقيم[1] مقام الفعل في الحالية لأن التقدير يوحد وحده- وبالميل إلى الشرك عند وجدان الإشراك.

فإن قيل: هلا ذكرتا؛ ولأن كل واحد كاف في السببية.

قلنا: لعل ذلك بالنسبة إلى من حصل له الأمران، فهو على وفق الواقع، وذكر الله الوصفين للإشعار بأنه المستحق للعبادة، وأن علوه وكبرياءه مانعان من أن يسوَّى به غيره في العبودية.

ومعنى ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ أن ما أنتم عليه من عدم الخروج سبب أنكم كافرون بتوحيد الله، مؤمنون بالشرك به، فالحكم بالخلود حكم الموصوف بالعلو والكبرياء، فحمكه يناسب عظمته؛ لأن من سوَّى بينه وبين بعض مخلوقاته في استحقاق العبودية يناسب أن يكون عذابه كذلك.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(١) في (ن): (في تأويل متوحد إذا أقيم).

ذكر هذا الكلام بعد التهديد لتأكيد المنع من الكفر بالله، لا سيما وكما راعى سبحانه مصالح الأديان بين مصالح الأبدان بإنزال الرزق من السماء، والمراد أسبابه كالمطر، ومن جملة الآيات العلوية كالسحاب والرعد والبرق.

وانحصار التذكر في المنيب باعتبار أن دلائل التوحيد وإن كانت كالراسخة في العقول لظهورها، لكن المنكر لميله إلى التقليد لا يدركها إلا بالرجوع عن الإنكار واتباع صالح الأفكار؛ لأن الجازم بخلافها لا ينظر فيها. ورتب على ذلك وجوب عبادة الله بالإخلاص، وإن شق ذلك على الكفرة.

وقرئ: ﴿ يُنْزِلُ ﴾ بالتخفيف[1].

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

لما أخبر عن الضمير بالموصول أخبر عنه بخبرين آخرين: كونه رفيع الدرجات، أي: الكمالات، أو مراتب المخلوقات، أو مصاعد الملائكة إلى العرش، أو السموات، أو درجات الثواب، وكونه سبحانه ذا العرش، وكل ذلك، وقرئ: ﴿ رَفِيعَ ﴾ بالنصب[2] على المدح؛ لبيان علو صمديته؛ ليتعاضد المعقول بالمحسوس، وذلك بأن يذكر بعد البحث، فيلزم من ذلك التوحيد المقتضى العقلي شيء من المحسوسات المؤكدة لذلك الأمر العقلي؛ ليصير الحسن بذلك الوجه معاضدًا للعقل، فـ ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ سواء كان المراد المرتفع في صفات جلاله ونعوت كبريائه عن الموجودات، أو رافعًا لدرجات المخلوقات [٧٧١/أ] أفاد ذلك لامتناع الشرك به، فإن من ارتفعت درجات عظمته بحيث لا يمكن الوصول إلى تمام

(١) التخفيف هو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب، وقرأ الباقون بالتشديد. ينظر: تحبير التيسير (ص٢٩١).

(٢) عن بعضهم. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٣).

حقيقتها، وانضم إلى ذلك أن يكون العرش هو أعظم الأجسام تحت قبضة قدرته، كيف يصح أن يشرك به؟!

و﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ ﴾ خبر رابع، يفيد بيان التصرف في الروحانيات كالجسمانيات لظهور آثارها، وهو الوحي هنا، وفيه تمهيد ذكر النبوة بعد تقرير التوحيد، كما هو عادة كتاب الله.

و﴿ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ بيان الروح المراد به الوحي، ووجه تسميته سَبَق في النحل[1] من أن حياة الأرواح بالمعارف الإلهية والجلايا القدسية، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، والروحانيات كلها مسخرة لله تعالى، وأشرف الأحوال الظاهرة في روحانيات هذا العالم ظهور آثار الوحي وفاعل (ينذر): إمَّا الله، أو الوحي، أو من يشاء، والأول أولى لأن الله هو السبب الأقرب؛ لأنه مظهره، واللام لبيان غاية الإلقاء، فإن المقصود من البعثة أن يصرف الأنبياءُ الخلقَ من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ليعرضوا عن الجسمانيات ويقبلوا على الروحانيات.

وسمّي ﴿ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ لملاقاة الأرواح مع الأجساد، أو تلاقي الخلق حتى الملائكة مع الإنس بعضهم بعضًا، فيدخل فيه تلاقي الظالم مع المظلوم، أو أجر العمل، أو لقاء الله، أو لقاء كل عابد معبوده. وقرئ: ﴿ التَّلَاقِي ﴾ و﴿ التَّنَادِي ﴾ بإثبات الياء[2].

والبروز: الخروج من القبر، أو الظهور الذي لا يستره شيء، أو تظهر نفوسهم بزوال غواشي الأبدان، فإنها لا تحجب النفوس عن الإدراك، أو تظهر الأعمال والسرائر. وقرر البروز بعدم خفاء شيء من أعيانهم وأحوالهم على الله.

---

(١) عند قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾[النحل: ٢].

(٢) قرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف، وقرأ أبو جعفر وورش عن نافع بالياء في الوصل دون الوقف، وقرأ الباقون بحذف الياء في الوصل والوقف. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩١).

و﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ حكاية لما يسأل عنهم يوم القيامة، فيقال: لمن الملك؟ فيجيبون بأنه لله الواحد القهار، أو لما دل عليه ظاهر الحال في ذلك اليوم من زوال الأسباب ورجوع الأمر إلى مسببها بارتفاع ما يتوهم وسائط، وحقيقة الحال ناطقة بذلك أبدًا عند ذوي الألباب.

فإن قيل: ما وجه تخصيص هذا الوصف؟

قلنا: قد ذكر في "المفاتح"[1] أن المراد أنه: قهر جانب العدم من الممكن بإعطاء الوجود مع تساويهما. ويمكن أن يقال: لعل الهيئة العارضة في ذلك اليوم تقتضي ذلك الوصف لما ثبت أن كل الموجودات كالرسل كلامهم في ذلك اليوم: ربِّ سلِّم، ربِّ سلِّم.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾

أراد أن يتمكن أن الله مع عزته وعظمته لا يجزي أحدًا إلا بالعدل، فلا يجزي كل نفس إلا بجزاء ما كسبت في الدنيا.

وفيه إثبات الكسب للإنسان، فإن كسبه يوجب جزاء، وأنه يستوفى يومئذٍ سواء كان من العقائد الزائغة، أو الأعمال السيئة، و﴿لَا ظُلۡمَ﴾ إشارة إلى عدم وقوع الظلم بأن يمنع من ثواب، أو ينقص منه، أو يعذب بغير استحقاق، أو يزاد عليه.

و﴿ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لا يشغله شأن عن شأن، فيوصل إلى كل ما يستحقه سريعًا، كما قال ابن عباس: (إذا أخذ في الحساب لم يَقِل كلا الفريقين إلا في محلهما)[2].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٤٨/٢٧). وللإيضاح هذا ما أورده الرازي: " ومعنى الإيجاد هو ترجيح جانب الوجود على جانب العدم وذلك الترجيح هو قهر للجانب المرجوح فثبت أن الإله القهار واحد أبدًا ونداء لمن الملك اليوم إنما ظهر من كونه واحدًا قهارًا فإذا كان كونه قهارًا باقيًا من الأزل إلى الأبد لا جرم كان نداء لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ باقيًا في جانب المعنى من الأزل إلى الأبد".

(٢) ذكره السمرقندي في تفسيره (٤٥٨/٣)، والواحدي في الوسيط (٣٣٨/٣)، وأخرجه بمعناه الطبري في تفسيره (٤٣٥/١٧).

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾

وصف آخر للقيامة بصفة هائلة، إن قلنا: هو يوم القيامة، قيل: يوم خروج الروح لا يلائم بعده، وقيل: صفة المجازاة.

وأزف الشيء أي: دنا، والآزفة فاعلة منه، والمراد قرب الساعة، نحو: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ﴾ [القمر: ١]، والتقدير: القيامة، أو المجازاة.

وإجراء أسماء القيامة على التأنيث لإرادة الداهية، أو المراد الخُطَّة الآزفة، وهي مشارفتهم دخول النار.

وكون القلوب لدى الحناجر كناية عن كمال الخوف، وعن الحسن: أنها ترتفع عن أماكنها، فتلتصق بحلوقهم، فلا تعود ولا تخرج حتى يستريحوا[1]. ومنه: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣].

و﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ معناها: ساكتين حال امتلائهم غمًّا وغيظًا، وهو حال عنهم، أو عن القلوب؛ لإرادة أصحابها، أو من ضميرهم في ﴿ لَدَى ﴾؛ لأنه ظرف، فلا بد من متعلق، أو مفعول ﴿ أَنذِرْهُمْ ﴾، فيكون حالًا مقدرة، وظاهر جمع السلامة لوصف القلب بالكظم الذي هو صفة ذوي العقل، وجمع العقلاء للوصف بحالهم، نحو: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] في ذكر الكواكب، وعدم القدرة على الكلام أشد؛ فإنه يحصل به نوع راحة.

والحميم: القريب المشفق، والشفيع: المطاع المشفع، وهو الذي أذن فيها. ولا يرد عليه الدلالة على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر لأن المراد بدليل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ [الرعد: ١٤]، وإن حمل على العموم فيدخل فيه الكفار، وليس للمجموع شفيع، أو أنه نفي شفيع مطاع،

(١) لم أقف على من أخرجه.

لا نفي الشفيع مطلقًا، وعلى فرض العموم فيحتمل عموم السلب وسلب العموم، والحمل على الأول واجب جمعًا بين الأدلة، وإنما لم يطع الشفيع؛ لأنهم الأنبياء والأولياء، وهم لا يحبون إلا بعض فإنه يحبه الله[1]. [٧٧١/ب]

وما قيل: إن المراد نفي الشفيع رأسًا كما يقال: ليس عندي كتاب يباع، ويراد نفيه مطلقًا.

فالجواب: أن هذا ليس كلام العرب، وإن سلم بخلاف الظاهر والضمائر للكفار، ووضع الظالمين موضعها لبيان المقتضي، والاختصاص بهم.

و﴿ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ ﴾ [النظرة الثانية إلى غير المحرم؛ لقوله ﷺ: ((**لك الأولى، وليست لك الثانية**))[2]، أو استراق النظر إليه، أو خيانة الأعين] [3]؛ لأن الخائنة جاءت مصدرًا، وقيل: كل نظر حرام، أو أن يقول: رأيت، وما رأى، وبالعكس، أو العبث بالنظر، أو يشير إلى من عنده ويستره عن غيره.

و﴿ تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ ضمائرها، والجملة خبر خامس عن ﴿هُوَ﴾ لبيان أنه لا يخفى عليه خافية. والعلم هنا متعلق الجزاء لمناسبة السياق، وقضاء الله بالحق لأنه الحاكم العدل على الإطلاق، فلا يقضى بشيء إلا هو حقه، وحق في نفس الأمر، ومدعو الكفار وهو الصنم كيف يقضي بشيء وهو جماد، فهو تهكم بهم.

فإن قيل: فمما يدعون الملائكة والمسيح وعزير؟

---

(١) قال الزمخشري: " وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلَّا من أحبه الله ورضيه، وأنّ الله لا يحبّ الظالمين، فلا يحبونهم، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم". الكشاف (١٦٣/٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح، باب فيما يؤمر به من غض البصر (٢١٤٩)، والترمذي في كتاب الأدب، ما جاء في نظرة المفاجأة (٢٧٧٧)، من حديث بريدة ﷺ، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك "، وصححه ابن حبان (٥٥٧٠)، وقال الحاكم (٢٧٨٨): "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه".

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ن).

قلنا: إما أن يخصص بالأصنام، أو أنهم لا يقضون بشيء إلا بإذن الله، فهو القاضي في الحقيقة.

والوصف بالسمع والبصر لتقرير العلم بخائنة الأعين، فإنها صفة النظرة، أو مصدر كالعافية، وفسر باستراق النظر إلى ما لا يحل وجعل خبر قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ﴾ مثل: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ ﴾، وجاء أحوال القيامة استطرادًا، ولقائل أن يقول: الأولى أنسب أن تجعل استئنافًا يكون كالتعليل لقوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ لا سيما وهو آمن، ومن هذا شأنه لا يقضي بغير الحق، فإن من جملة أسبابه الجهل بالمقضي به، وفيه الوعيد الشديد.

وقرئ: ﴿ تَدعُون ﴾ بالتاء على الالتفات[1]، أو على إرادة: قل لهم ذلك.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۖ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾

لما خوفهم بأحوال القيامة أردفه بما يرشدهم إليه من آثار المهلكين؛ كعاد وثمود، وما آل إليه أمرهم لما كذبوا الرسل، والحال أنهم كانوا أقدر وأمكن منكم، وأشد بطشًا، وأكثر آثارًا في الأرض؛ من القلاع والمدن الحصينة. وإذا قيل: أكثر آثارًا، فهو كقوله:

..... *** متقلدًا سيفًا ورمحًا[2]

---

(١) وهي قراءة نافع وحده. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٩).

(٢) عجز بيت لعبد الله بن الزبعري يقول فيه:

ورأيت زوجك في الوغى *** متقلدًا سيفًا ورمحًا

ويروى بدل الشطر الأول:

يا ليت زوجك قد غدا *** .....

ورمحًا نصب بمحذوف يناسبه، أي: متقلدًا سيفًا وحاملًا رمحًا . ينظر: الخصائص (٢/٤٣١)، أمالي ابن الشجري (٢/٣٢١).

أي: معتقلًا رمحًا، وقيل: أشد لها طلبًا، وأبعد غاية.

وضمير الفصل وإن كان لا يقع إلا بين معرفتين لئلا يلتبس الخبر بالنعت ألحق به أفعل من كذا لامتناع دخول اللام عليه، ويجوز أن يكون تأكيد ضمير كان.

ولما أخذهم وعاقبهم بذنوبهم لم يفهم أخذ، ولم يمنع عنهم العذاب، وذلك الأخذ بسبب لما آتاهم رسلهم بالمعجزات أو الأحكام الواضحة كفروا بها أخذهم الله، وعلل ذلك قوى متمكن مما يريده غاية الممكن، وله عقاب شديد لا يؤبه بعقاب غيره.

وقرئ: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ﴾ على الالتفات[1].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾

تسلية للنبي ﷺ بمن هو أقرب زمانًا؛ فإن موسى مع كثرة معجزاته وقوتها كذبه من أُرسل إليه، وقالوا: ساحر كذاب، مع أن ظهور تلك المعجزات بحيث لا يرتاب ذو عقل سليم بأنها ليست من السحر، وهو المراد بالحق، وعطف السلطان على الآيات إما لتغاير الوصفين، أو لعطف الأخص كعصاه، وهذا القتل غير القتل بقول المنجمين، بل لئلا يتقوى موسى بهم، وكان قد رفع القتل عنهم ثم أعاد عليهم، واستحياء النساء للخدمة، وكان يزوج بناتهم من القبط، فبين الله أن جميع ما يسعون به في مكايدة موسى في خسار وباطل وضياع؛ لأن ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، ووضع الكافرين موضع ضميرهم لمقتضى الحكم وتعميمه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

(١) وهي قراءة ابن عامر وحده. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٩).

هذا نوع آخر من مكائدهم قول فرعون ذلك، وظاهره يشعر بأنهم كانوا يمنعونه من قتله، ويقولون: إنه ساحر، فقتله يشعر بالعجز عن معارضته بالحجة، وامتناعه عن قتله مع كونه سفّاكًا دليل ظاهر على أنه كان يعلم أنه نبي، فخاف من قتله لظهور معجزة تمنعه عنه فيفتضح، ولوقاحته يقول: ﴿ذَرُونِيٓ﴾ وأنه لرعاية قلوب أصحابه لا يقتله، وقوله: ﴿وَلۡيَدۡعُ﴾ يقوله على وجه الاستهزاء، أي: أنا أقتله فليقل لربه حتى يخلصه مني، أي: لا يجيبه، أو أنه لا يدعو شيئًا له حقيقة. وما قيل: هو شاهد على خوفه غير ظاهر إلا بتكلف، وتَعلَّل بـ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله أن يغير ما أنتم عليه من عبادة الأصنام، أو يفسد دنياكم بالتحارب والتهارج إن لم يبطل الدين بالكلية، أو يبدله بدينه الباطل، أو يقتل الأبناء ويستحيي النساء كما فعلنا بهم. وفيه اعتراف بنهاية العجز مع دعوى الألوهية، وأن موسى في المهابة، وذلك يدل على أن عظمة آثار النبوة وكبرياء المعجزات قد قهرته، ولم يبق منه إلا تجلد وإظهار عدم مبالاة.

وقرئ بفتح الياء وضمها[1]، وبالواو[2] إرادة الجمع بين المحذورَين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾ [أ/٧٧٢]

قيل: قاله معه وقومه، وقيل: مع قوم موسى، وهو اللائق بإضافة الرب إليهم، وتصدير الكلام بـ(إنَّ) لبيان أن الاعتماد في دفع الشر الاستعاذة بالله، وذكر الرب لأن المطلوب التربية، وقوله: ﴿رَبِّكُمۡ﴾ ليوافقه في الاستجابة؛ فإن لتوافق النفوس أثرًا؛ ولهذا شرعت

(١) قرأ أبو جعفر ونافع وحفص عن عاصم ويعقوب بضم الياء وكسر الهاء، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء والهاء. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٩).

(٢) أي: (وأن)، وهي قراءة أبي جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٩).

الجماعات، وعدم ذكر فرعون لتعميم الاستعاذة، وما قيل: إنه لرعايته نظرًا إلى تربيته لموسى ضعيف؛ فإنه لم يكن يتأثر بذلك.

وقرئ بإدغام الذال في التاء[1].

ومما يعلم منه أنه لما كان الحق سبحانه رباه، وإلى معالي الدرجات رقَّاه، استعاذ به في دفع المكروه، والخطاب بـ﴿رَبِّكُمْ﴾ تحريض لقومه على الاستعاذة.

ولما كان كون الإنسان متكبرًا، قاسي القلب، منكرًا للبعث والحساب، مظنة الإيذاء، ذكر ذلك، فإن الطبع مائل إلى الشر، ولا خوف من العقاب [2] يمنعه، والتعميم بـ﴿كُلِّ﴾ ليتناول كل جبار.

ولقائل أن يقول: لعل موسى إنما استعاذ من مثل هذا الإنسان لأنه بعيد عن الإيمان الذي هو مقصود البعثة، لا سيما فرعون، فإن كان مانعًا غيره عن الإيمان فيفوت مقصود البعثة لا أنه يقدر على أذاه، والله قد أيده، وعن شره وقاه، قيل: كيف خاف وقد قال تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]؟

قلنا: لعل ذلك الكلام متأخر عن هذا القول، وأيضًا في احتمال القائل جواب آخر.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

من أدلة قبول الاستعاذة أن الله قيض أجنبيًا عنه، يدعو الناس إلى دينه، وينصحه ويذب عنه بأحسن وجه.

---

(١) هي قراءة أبي جعفر وأبي عمرو ونافع برواية إسماعيل وحمزة والكسائي وخلف. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٨٩).

(٢) في (ن): (العاقبة).

ويقرأ: ﴿رَجْل﴾[1] بسكون الجيم كعَضْد في عَضُد، قيل: ابن عم فرعون، وقيل: قبطيًا، وقيل: من بني إسرائيل، أو غريب ينافقهم. والاسم قيل: حبيب، أو سمعان، أو حربيل، بالحاء والراء، والخاء والراء [2]، والأول هو من المناسب للفظ [3]، إلا أن يكون التقدير: يكتم من آل فرعون إيمانه، وقيل: لا يصح ذلك.

﴿أَنَقْتُلُونَ﴾: أتقصدون قتله لأجل أن يقول، أو وقت قوله: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وحده؟! وهو يدل على الحصر دلالة قولهم: صديقي زيد، فإن الأخبار بالخاص عن العام لا يتصور حقيقة إلا على المبالغة.

والبينات: المعجزات الكثيرة الدالة على صدقه.

وإضافة الرب إليهم بعد ذكر البينات لاستدراجهم إلى أن يعترفوا به بعد أن يجب معهم على وجه الاحتياط [4] بأن قال: إن يك كاذبًا لا يتعدى وبال كذبه عنه إلى غيره، فلا يحتاج إلى دفعه، وإن كان صادقًا فأقل ما في الباب أن يصيبكم بعض ما حذركم عنه.

وفيه إظهار الإنصاف وترك التعصب، وإلا فجميع ما يحذر عنه النبي لا بد من وقوع كله لا بعضه؛ ولهذا قدم ذكر الكذب ليكون أنفذ من التهمة، والمحذر عنه قد يكون عذاب الدنيا، فعلى هذا يكون التخويف بإظهار الاحتمالات عندهم.

وقيل: المراد بالبعض الكل؛ لقول لبيد:

---

(١) عبيد عن أبي عمرو وعيسى بن عمر. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٣٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٨).

(٢) أي: حربيل. ولا دليل على هذه الأقوال، ولا أثر لتحديد اسمه. انظر: الكشف والبيان (٢٧٢/٨)، النكت والعيون (١٥٢/٥)، زاد المسير (٧٧/٧).

(٣) أي: القول بأنه ابن عم فرعون.

(٤) قال البيضاوي: "﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: أضافه إليهم بعد ذكر البينات احتجاجًا عليهم واستدراجًا لهم إلى الاعتراف به ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط". أنوار التنزيل وأسرار التأويل (ص٦٢٢).

تَرَّاكُ أمْكِنَةٍ إِذَا لم أَرْضَهَا **** أوْ يرتَبِط بعضُ النفوسِ حِمَامَهَا[1]

وردَّ بأن المراد نفسه، وقيل: معنى بعض الشر أهون من بعض، أي: من كله، وهو أيضًا محل المنع، وقولنا: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: لا يتعدَّى وبال كذبه إليكم فتحتاجون إلى دفعه يندفع به ما قيل: إنه يتعدى ضرره إلى الغير، وأنه يجوز أن يترك الزنديق، وإنه إن كذب شخصٌ الرسولَ ينبغي أن لا يتعرض بعين هذا الدليل.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ إلى آخره تقرير لهذا المعنى وهو أن من ادعى النبوة كاذبًا على الله هو المسرف الكذاب، وكل من كان كذلك فلا يهديه الله إلى إثبات مدعاه، فلا يتخطى وبال كذبه عنه إلى غيره؛ لعدم قدرته على ترويجه.

وفيه جواب من قال: إن لو جاز تأثير السحر والشعوذة لزم أن يلتبس النبي بالمتنبي.

وفيه تعريض بحال فرعون؛ بأنه المسرف الكذاب، وأن موسى لو كان كذلك لما أيده الله بهذه المعجزات. وقيل: قصده بقربه كونه نبيًا، وحمل إليهم ذلك المعنى لتلين شكيمتهم.

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾

هذا من كلام مؤمن آل فرعون وهو احتجاج على وجه النصحية، وقال: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ﴾ حيث علوتم الناس، وغلبتموهم، فلا تتعرضوا لقتل موسى؛ فإنه تعرض لبأس الله الذي إن جاءنا لم يدفع عنا أحد، وإشراك نفسه معهم لأنه كان منهم، وأوهمهم أنه مشاركهم في النصيحة.

ولما قال ذلك، ما أشير إليكم برأيي [1] غير ما ذكرت من قتله، وقلبي ولساني متوافقان، ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾ برأيي إلا طريق صلاح دينكم ودنياكم.

(١) ينظر: جامع البيان (٩٢/٢٥)، لسان العرب (١١٩/٧)، مادة: (بعض)، وفي اللسان: "أو يتعلق بعض النفوس".

ويقرأ: ﴿ الرَّشَّادِ ﴾ بالتشديد[٢] على بناء المبالغة من رشِد بالكسر، كغَلَّام، أو بالفتح كعباد، لا من أرشد كجَبَّار؛ لأنه لا يعلم إلا بالسماع أو للشبه كثمَّار، وبتَّات وهو: الذي يعمل الكساء، والبَتُّ: الكساء[٣].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [٧٧٢/ب]

لما قال فرعون ذلك رد عليه مؤمن آله؛ إما مخفيًا إيمانه لقوله تعالى: ﴿ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥ ﴾ زاعمًا أن المصلحة في أن لا يقتل موسى؛ لأنه لم يصدر عنه إلا الدعاء إلى الله وإظهار المعجزات القاهرة، وإما معلنًا بالإيمان مزيلًا للكتمان في ثاني الحال للتصريح بهذا المقال، وهو التخويف بما أصاب الأمم الخالية في الأعصار الماضية، وفي جمع الأحزاب كفاية عن جمع اليوم؛ لأنه يُلبِّس أنَّ المراد أيامهم، فإنه لما فسر بقوم نوح وعاد وثمود علم أن لكل قوم يومًا هلكوا فيه[٤]، ولما كان دأب قوم فرعون دأب أولئك من الكفر والمعاصي، وأن ذلك يصدر منهم دائبًا، وإنما خوفهم بعذاب الدنيا، ثم عقبه بعذاب الآخرة، بقوله: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾، ولا بد من تقدير مضاف مثل: جزاء دأبهم.

---

(١) هكذا في جميع النسخ، وكأن هنا سقطًا، والمعنى: ولما قال ذلك مؤمن آل فرعون، قال فرعون: ما أشير إليكم برأيي...

(٢) عن معاذ بن جبل، قال ابن خالويه: "يعني الرشَّاد الله تبارك وتعالى". ينظر: شواذ ابن خالويه (ص١٣٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٧).

(٣) البَتَّات: الذي يبيع البتوت ويعملها، والبَتُّ : ضَربٌ من الطَّيالسة يسمى السَّاجَ مربع غليظ لونه أَخضر، والجميع البُتُوتُ. وعن الأصمعي: البَتُّ : ثوبٌ من صوف غليظ شِبْهُ الطَّيْلَسان وجمعه بُتوت. انظر: تهذيب اللغة (١٨٣/١٤)، لسان العرب (٦/٢)، مادة: (بتت).

(٤) قال الزمخشري: ﴿ مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾: "مثل أيامهم، لأنه لما أضافه إلى الأحزاب ، وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، ولم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار، اقتصر على الواحد من الجمع؛ لأنّ المضاف إليه أغنى عن ذلك". الكشاف (١٦٩/٤).

و﴿ مِثْلَ ﴾ الثاني منصوب عطف بيان للأول؛ لأن آخر ما أضيف إليه ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾، ولو جعله ﴿ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ عطف بيان للأحزاب صح. والله لا يظلم عباده، فيعاقبهم من غير ذنب، ولا يهمل الظالم من غير انتقام، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] باعتبار أن المنفي هنا نفي حدوث تعلق إرادته بالظلم، وذلك من وجهين: أحدهما: أنه إذا كان بعيدًا عن إرادة الظالم كان أبعد من الظلم، والثاني: إيقاع النكرة في سياق النفي.

﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

هو يوم القيامة؛ لأنه ينادي فيه أهلُ الجنة أهلَ النار، وأهلُ النار أهلَ الجنة. وحمل على نصائحهم بالويل والثبور.

والتنادي: تفاعل من النداء، وحذف الياء في الفواصل، أو ينادى بالسعادة والشقاوة، ينادى بأن فلانًا سعد سعادة لا يشقى فيها أبدًا، وشقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا والتولية فيه من الموقف مدبرين عنه إلى النار، وقيل: يوم، ولا عاصم في ذلك اليوم من عذاب الله من مانع، ولا دافع، ولا مرشد لمن أضله الله، وهو دليل على المعتزلة كما سبق في مثله.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وفرعون هو فرعون موسى [1]، قيل: مات له فرس قيمته ألوف، فدعا يوسف فأحياه الله، وكسفت الشمس فدعا يوسف فكشفها الله،

(١) قال أبو الليث السمرقندي: "وروي عن وهب بن منبه قال: فرعون موسى هو الذي كان في يوسف فعاش إلى زمان موسى، وهذا خلاف قول جميع المفسرين" . بحر العلوم (١٩٧/٣). والجمهور على أنه يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وفرعون ليس هو فرعون موسى. انظر: =

فآمن فرعون ثم ارتد بعد موته، أو يوسف بن إبراهيم بسط يوسف أقام فيهم عشرين سنة، أو من قبيل نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد كما في يهود زمن النبي ﷺ. وقيل: فرعون آخر، وأغرب ما قيل أنه كان من الجن.

و﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: موسى، أو مؤمن آل فرعون بالمعجزات، وما زلتم شاكين في دينه، حتى إذا مات ضمهم إلى الكفر به بكل رسول يأتي بعده، أو جزمتم بأن لا يبعث بعده رسول، مع الشك في رسالته.

ويقرأ: ﴿أَلَن﴾[1] على معنى أن بعضهم يقرر بعضًا بنفي البعث، وكذلك معناه ذلك الإضلال الذي لهم، ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ في العصيان الشامل للكفر من هو مسرف في العصيان، أو بقوله: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ﴾ شاك فيما تدل عليه المعجزات للتقليد، وقيل: علم الرؤيا إن أريد به يوسف بن يعقوب.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

بدل من ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾؛ لأن المراد به الجمع، فإنه لا يريد مسرفًا واحدًا، وفاعل ﴿كَبُرَ﴾ ضمير ﴿مُسْرِفٌ﴾. وفيه النظر إلى اللفظ تارة، وإلى المعنى أخرى، وحمل على أن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، و ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ خبره، والسلطان الحجة، أي: ليس لهم مستند إلا التقليد، ويعلم أن الجدال بالحجة حسن، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

والمقت: البعض الشديد، وهو لبلوغ الممقوت في الذم مبلغًا عظيمًا، وهذا المقت كما حصل عند الله حصل عند المؤمنين.

= جامع البيان (٦٣/٢٤)، الكشف والبيان (٢٧٤/٨).

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٧٠/٤).

وقرئ: ﴿قَلْبٍ﴾ منونًا[1]، و﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ صفته، وقراءة الأكثر أحسن؛ لأن وصف بالكبر[2] أولى من وصف القلب.

واستشهد للأول بقوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر: ٥٦]، أو على حذف المضاف، أي: كل ذي قلب، وبالإضافة تقديره: كل قلب كل متكبر، والمتكبر هو عن قبول التوحيد، والجبار: القتَّال بغير حق.

والآية تصلح دليلًا لنا والمعتزلة إن أريد أن سبب الطبع كونه مجهولًا من الله على التكبر والتجبر، فهو وإن أريد أنه جزاؤهما فهي دليلهم، غير أنه لما سبق أنه إذا علم الله منهم الأمر إن استحال لا يوجدا منه[3].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

---

(١) هي قراءة أبي عمرو وابن عامر وقتيبة عن الكسائي. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٠).

(٢) أي: وصف صاحب القلب. قال الزمخشري: " ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي: على كل ذي قلب متكبر، تجعل الصفة لصاحب القلب". الكشاف (١٧١/٤).

(٣) كذا في الأصل وسائر النسخ، وعبارة الرازي: " وأصحابنا يقولون قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ يدل على أن الكل من الله، والمعتزلة يقولون: إن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ يدل على أن هذا الطبع إنما حصل من الله لأنه كان في نفسه متكبرًا جبارًا ، وعند هذا تصير الآية حجة لكل واحد من هذين الفريقين من وجه وعليه من وجه آخر، والقول الذي يخرج عليه الوجهان: ما ذهبنا إليه وهو أنه تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعون إلى الطاعة والانقياد لأمر الله ، فيكون القول بالقضاء والقدر حيًا ، ويكون تعليل الصد عن الدين بكونه متجبرًا متكبرًا باقيًا ، فثبت أن هذا المذهب الذي اخترناه في القضاء والقدر هو الذي ينطبق لفظ القرآن من أوله إلى آخره عليه". مفاتيح الغيب (٥٦/٢٧).

كان وزير فرعون، ولم يكن من بني إسرائيل، ولا قبطيًا، ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا﴾ أي: بناء عاليًا مكشوفًا من التصرح، وهو الإظهار، وقيل: كان بالآجر لقوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقيل: لم يُبنَ، للشُّغل بالآيات [٧٧٣/أ] التسع.

و﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيان للأسباب، وهي طرقها، أو منزلها، أو أبوابها، أو السبب إلى مرادي وذكرها ثم مفسرة لتعظيمها، وتشويق السامع إلى معرفتها.

و﴿أَطَّلِعُ﴾ عطف على ﴿أَبۡلُغُ﴾، وقرئ بالنصب [1] جوابًا بالكل، ولما كان بناء الصرح للبلوغ إلى السماء كفعل المجانين؛ لأن كلٍ يعرف أنه لا يبلغ ببنائه إلى علو جبل، فكيف إلى السماء؟! ولم يكن مجنونًا، وإلا لما أُرسِل إليه موسى، قيل: لعله أراد أن يبني رصدًا في موضع مرتفع، يرصد منه أحوال الكواكب التى هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله رسولًا، أو أن يرى فساد قول موسى بأن إخباره من إله السماء؛ ليتوقف على اطلاعه ووصوله إليه، وذلك لايتأتَّى إلا بالصعود إلى السماء، وهو مما لا يقوى عليه الإنسان، فإن فَعَله معتقدًا ذلك فلجهله بالله وكيفية استنبائه موسى، وعن الحسن: أنه أراد التلبيس على الجهلة[2].

قيل: كان يعبد الشمس قد استجابته مملكته [3]، وقد سبق طرف منه. وإني لأظن موسى كاذبًا في أن له إلهًا غيري.

ومثل ذلك التزيين والصد زين لفرعون عمله السيئ، وصد عن سبيل الرشاد.

---

(١) قرأ حفص وعاصم: (فأطّلعَ) بالنصب، وقرأ الباقون: (فأطّلعُ) بالرفع. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٠).

(٢) انظر: غرائب التفسير (١٠٣٠/٢)، النكت والعيون (١٥٦/٥).

(٣) هكذا في جميع النسخ، وفي اللباب: "وكان فرعون يعبد الشمس، ويعتقد أن الشمس قد استجابته" رسالة اللباب ٢١٤/١ [تحقيق: إبراهيم الحكمي].

ويقرأ: بالفتح والضم والكسر[1]، وهو يناسب ما هو الحق في نفس الأمر من أن المزيِّن هو الله تعالى، والشيطان هو المتوسط؛ لأن المزيِّن للشيطان إن كان شيطانًا آخر ولم ينته إلى الله تعالى لزم الدور أو التسلسل في الشيطان، وإن كان غيره فالكلام في الشيطان.

وقرئ: ﴿صَدَّ﴾[2]، وفاعله فرعون، فإنه صدَّ الناسَ عن الهدى بهذه التسويلات، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

ويقرأ: ﴿صَدٌّ﴾[3] بالمصدر، وهو معطوف على سوء عمله، و ﴿صُدُّوا﴾[4] بالجمع بإرادته مع قومه.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾

هذا من تمام كلام مؤمن آل فرعون، دعاهم إلى الإيمان بموسى واتباع طريقه إجمالًا بقوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، لا على وجه التقليد؛ لأن الهدى الدلالة، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون [الغي][5]؛ لأن الرشاد نقيضه.

---

(١) أي: بفتح الصاد وضمها وكسرها. ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/١٧٢).

(٢) قرأ يعقوب والكوفيون: (وصُدَّ) بضمِّ الصاد، وقرأ الباقون: (وصَدَّ) بفتحها. ينظر: تحبير التيسير في القراءات العشر (ص٤٢٣).

(٣) عن عبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحاق. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٣٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٨).

(٤) عن طلحة. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٨).

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

والتفصيل بذم الدنيا وتحقيرها فإن المراد بالمتاع التمتع بهذه الحياة أيامًا قلائل، والآخرة باقية دائمة، وعدم جزاء السيئة بأكثر من مثلها عدل من الله. ولا يقال: فكيف أوجب الكفر لحظةً عذاب الأبد؟! لأن الكافر يعتقد أن كفره طاعة، فهو على عزم أن يبقى عليه أبدًا، فكان عقابه أبدًا، بخلاف الفاسق، فإنه يعتقد أن فسقه جناية، فهو على عزم أن [لا][1] يصر[2] عليه، فلا يكون عقابه. وإيجاب المعتزلة التأبيد على الفسق ظاهر البطلان لذلك، وتدل عليه النكرة في سياق الشرط، فإن مقتضاها أن من عمل صالحًا واحدًا فإنه يدخل الجنة، ويرزق فيها بغير حساب، فالآتي بالإيمان والمواظب على التوحيد والتقديس مدة عمره قد أتى بأعظم الصالحات، والمعتزلي يخلده بكبيرة في النار متمسكًا بأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن، وقد سبق أنه مؤمن في قوله تعالى: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١].

معنى ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ يعني: تقدير، ومقابلة بالعمل بل أضعافًا مضاعفة لفضل الله ورحمته، وتركيب الجملة الدالة على الجزاء اسمية، وتصديرها باسم الإشارة، وتفصيل الثواب لتغليب الرحمة، وجعل الإيمان حالًا بعد جعل العمل الأصل للإشعار بأن الإيمان شرط في اعتبار العمل، وأن ثوابه أعلى من ذلك، وإذا عارضنا عمومات الوعد مع عمومات الوعيد لزم أن يكون الترجيح للأول، وبه يظهر عوار المعتزلة.

﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

(٢) في الأصل، و(أ، ب، ح، ج): (يصير)، وما أثبته من (ن).

إنما كرر النداء وعطفه على النداء الثاني وأتى بالعاطف في ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ الثالث دون الثاني؛ لأن الثاني بيان الأول، فيكون من تتمته، فإن الإعراض عن زخارف الدنيا والإقبال على الآخرة والاشتغال بالعمل هو المقصود من اتباع الرسل، ومن هنا يعلم كون الثالث بيانًا للثاني، فيكون عطف بعض البيان على بعضه، ولو عطف على الأول كان عطفًا على الشيء قبل تمامه، ولم يعطف الثاني على الأول لأنه مثله في كونه غير تام، فأعطي حكمه في امتناع دخول العاطف عليه، وفائدة التكرار: إيقاظهم عن شُبَه الغفلة، ومبالغة [1] في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه مع أنه أتى به تصريحًا وتعريضًا، بقوله: ﴿تَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، أو بيان فيه تعليل للدعاء إلى النار، وتعدية الدعاء باللام و﴿إِلَى﴾ لأنه كالهداية.

ومعنى ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ﴾ بربوبيته علم، والمراد نفي المعلوم لا وجوده، ونفي علمه. وفيه دليل على أنه لا بد من البرهان [٧٧٣/ب] على الألوهية على وجه الإيقان.

وذكر ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ و﴿ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ لبيان أن مستحق العبودية الجامع لصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة، ويستلزم ذلك العلم والإرادة، فيقدر على التعذيب والغفران.

ويحتمل أن يريد الترهيب عن الإعراض، والترغيب في الإقبال.

و﴿لَا جَرَمَ﴾ قيل: معناه حقًا، أو لا بد، فعل من الجرم، وهو القطع، ومثله: بد، فعل من التبديد، وهو التفريق. ومذهب البصريين أن ﴿لَا﴾ رد لما دعوه إليه، وجرم معناه: حق، فيكون أن ﴿مَا تَدۡعُونَنِيٓ﴾ فاعله، وإذا قلنا: معناه: لا بد، فالمراد أن القطع حاصل بأنهم يحقون[2] النار بغير انقطاع، و ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النحل: ٦٢] معناه: لا قطع لذلك، والمعنى هنا: لا قطع لبطلان دعوة [3] الأصنام، أي: لا يزال باطله لا ينقطع، ووجه البطلان

(١) في الأصل: (ومبالغهم)، وهو تحريف، والتصويب من (ن).

(٢) هكذا في جميع النسخ، وفي الكشاف: " فكذلك لا جرم أن لهم النار، أي: لا قطع لذلك، بمعنى أنهم أبدًا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع". الكشاف (١٧٤/٤).

(٣) في الأصل: (لدعوة)، وما أثبته من (ن).

أن الأصنام باعتبار أنها جمادات لا تدعو أحدًا إلى عبادة أنفسها، ولو كانت معبودات لدعت إلى عبادتها، ولا تدعي الربوبية، ولو كانت حية لمنعت منها، وفي الآخرة إذا أحياها الله تبرأت من عبدتها، أو أنها لا تجيب من يدعوها في العالمين.

ثم أكد الزجر عن عبادتها، ورغب في عبادة الله، بأنه إذا كان لا بد وأن يكون المرد إلى الله العالم بالأفعال القادر على الجزاء، فكيف يجوِّز العقل ترك عبادته، والعدول إلى عبادة الجماد.

والمسرفون قيل: المشركون، وقيل: السفاكون للدماء. وإذا حمل على المبالغين في المعصية بحسب الكمية أعني: الدوام والكيفية، وهي العلو والإصرار، كان أشمل فيكون أولى.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

ختم المؤمن كلامه بتهديد شديد؛ لإيهامه إما بالغرق في الدنيا، أو أهوال القيامة، وكأنهم خوفوه بالإهلاك، فقابلهم به، وسلك طريقة موسى في ذلك، حيث استعاذ وهو قد فوض الأمر إلى الله، وفيه دليل على أن الكل من الله.

وقرئ: ﴿ أَمْرِيَ ﴾ بفتح الياء[1]، والفاء في ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ يشعر بأنه لما بذل مجهوده في الترغيب والترهيب وقاه من شرهم، فإنه روي أنهم قصدوا قتله، فهرب إلى الجبل، أو إدخاله في الكفر.

وقوله: ﴿ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ إشارة إلى أنه يحرسهم، ويكون جواب وعيدهم، وقيل: الضمير لموسى[2] وما حاق بآل فرعون شامل للإغراق والإحراق، وحمل على كل واحد،

(١) هي قراءة أبي جعفر ونافع وأبي عمرو. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٢).

(٢) رأي الجمهور: أن الضمير يعود إلى المؤمن، وهو ما يدل عليه السياق. انظر: جامع البيان (٢٤/٧٠)، النكت والعيون (٥/١٥٨).

واستغنى بذكرهم عن ذكر فرعون؛ لأنه أولى به، وقيل: المراد الذين أرسلهم إلى طلبه، فإنهم لما وجدوه يصلي في الجبل، والوحوش صفوف عنده، رجعوا رعبًا، فقتلهم[1].

والآية تدل على عذاب القبر؛ لأنه عطف يوم القيامة عليه، لا يقال: المراد الترهيب من النار في الدنيا، فإنه ليس عرض نفس النار، ولا يشكل بتخصيص الوقتين لإرادة الدوام منهما نحو: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، أو يكون عذابهم كذلك، وهذا بعيد؛ لأن عذاب الكافر دائم.

ولقائل أن يقول: جاز أن يكون العذاب دائمًا، وعرض النار يكون في الوقتين.

وقرئ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ من الإدخال، يأمر الخزنة به، ومن الدخول، أي: يا آل فرعون[2].

ومجموع ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ﴾ جملة مستأنفة، أو التقدير: هي النار، ويعرضون استئناف للبيان، أو بدل. و﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ﴾ حال منها، أو من الآل.

ويقرأ منصوبة[3] فيكون التقدير: أعني، أو بإضمار نحو: يَصلَون؛ لدلالة ﴿يُعْرَضُونَ﴾ عليه؛ لأن المراد بالعرض الإحراق بها، يقال: عرض الأسارى على السيف، أي: قتلوا به.

وتفسير النار بنار جهنم لا ينافي ما قيل: إنهم يعذبون بمثل ما قصدوا المسلمين، فإنهم لم يعذبوا المسلمين بها لا، قد يقصد الإهلاك بالغرق، فيهلك بالحرق؛ لأنه سواء في الجملة. بخلاف ما فسر برجوع ما هم به من المكر بالمسلمين عليهم، كما قيل: من حفر لأخيه

---

(١) انظر: النكت والعيون (١٥٩/٥)، تفسير السمعاني (٢٢/٥).

(٢) قرأ أبو جعفر ونافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب بقطع الهمزة وكسر الخاء، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بوصل الألف وضم الخاء. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٠).

(٣) ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٨).

جُبًّا وقع فيه منكبًّا. وما روى ابن مسعود: (أن أرواحهم في أجواف طير سود تعرض على النار في الوقتين)[1] لا ينافي ما ذكرنا.

و﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: عذاب جهنم، فإنه أشد مما كانوا فيه.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

بقول تفصيل للمحاجة، فإن المراد مخاصمتهم مع الرؤساء.

وتَبَع جمع تابع، كخَدَم وخادم، أو ذوى تبع بالإضمار أو المجاز أو مصدر، والمراد بالإغناء الدفع، أو التحمل عنهم، و﴿نَصِيبًا﴾ مفعول فعل دل عليه مغنون، نحو: يرفعون أو يدفعون، وأن فعل مفعوله فللتضمين، أو مصدر مثل: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠] أي: شيئًا من الإغناء، ومعنى (قول) معناه: أننا وأنتم سواء في ذلك، وكيف نغني ولو قدرنا لرفعنا عن أنفسنا؟!

ويقرأ ﴿كُلًّا﴾ بالنصب[2]، فيكون تأكيدًا لاسم (إنَّ)، والتقدير: كلنا، فالتنوين عوض المضاف إليه، ولا يجوز جعله حالًا من المستكن في ﴿فِيهَآ﴾؛ لأنه لا يعمل[3] في المتقدم، ولعل ذلك لضعفه، وإن كان يعمل في الظرف المتقدم [٧٧٤/أ]، ويمكن أن يفرق بالاتساع في الظروف.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١٨٢/٣)، وابن جرير في جامع البيان (٧١/٢٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣٢٦٧/١٠).

(٢) عن ابن عمير. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٩).

(٣) في الأصل: (يعلم)، وهو تحريف، والتصويب من (ح، ن).

وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ﴾ إنما ينهض جوابًا أن لو أريد أنه حكم حكمًا لا يتغير، وأنه لا معقب لحكمه. وقيل: قصدهم تخجيل أولئك وإيلام قلوبهم لإضلالهم إياه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

إضافة الخزنة إلى جهنم دون ضمير النار للتهويل، أو لأن جهنم اسم الموضع الذي أشد المواضع، ويقرب منه [أنه] (١) أبعد دركاتها، يقال: بئرًا جهنميًا إذا كانت بعيدة القعر، وفيه أعظم الكفار، وخزنته أعظم عند الله قدرًا، فيخصون بالتوسل إلى الله تعالى.

واليوم: قدر يوم الدنيا، أي: يدفع عنا سيئات العذاب. وإن جعل مفعول ﴿يُخَفِّفْ﴾ فتقدير: عذاب يوم.

و﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ للبيان، وسؤالهم عن إتيان الرسل لإلزام الحجة، والتقريع بإهمال النظر، والكفر، وإضاعة وقت ينفع الدعاء، وإهمال أسباب الإجابة.

وقولهم: فادعوا الله، إقناط لهم إذ المراد: إنا لا ندعو لعدم الإذن في شفاعة (٢) الكفار، وأما دعاؤهم في ضياع، لا أثر له. وقيل: المعنى: أولم يعلمكم الرسل أن عذاب جهنم دائم لا تخفيف فيه؟!

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

وجه الربط ما سبق من وقاية الله مؤمن آل فرعون، أو ذكر الرسل في قوله لحزبه: إنهم منصورون في الدنيا؛ إما بالحجة والظفر بالكفرة، أو بالحجة وحدها، وفي الآخرة بالانتقام.

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ن).

(٢) في الأصل: (الشفاعة)، وما أثبته من (ح، ن).

وفي "المفاتح"[1]: أن الأقرب أن يتعلق بأول السورة من يحب الجدال في آيات الله ليكون تسلية للنبي ﷺ، فإنه تعالى وعد أن ينصر الأنبياء و[من][2] تبعهم بالحجة في الدنيا، والمدح والتعظيم، والظلمة وإن قهروا شخصًا منهم، فهو منصور، يكون باطنه مملوءًا من نور الحجة واليقين، ولا ينظر إلى الظالم إلا كنظر الملائكة إلى أخس الأشياء، وقد ينصر بالانتقام في الدنيا كما قُتِل سبعون ألفًا بعبده يحيى عليه السلام.

و﴿ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾: الأنبياء والملائكة الكرام الكاتبون، وكل من يقوم بالشهادة خير المؤمنين، وهو شاهد، كأصحاب جمع صاحب، والتشريف والتعظيم عند الجمع العظيم أبهج.

ولقائل أن يقول: الربط بالكلام القريب أن يكون المراد أن دعاء الكافرين إنما يكون في ضلال؛ لأننا ننصر رسلنا بالانتقام من الكفرة، وقبول الدعاء ينافي تمام التشفي.

و﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾، وإنما لم ينفع إما لعدم الإذن في الاعتذار، أو لأنه باطل. ولهم حينئذ البعد عن رحمة الله، و ﴿ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾: جهنم، ولاختلاف المواطن يمكن الجمع بينهما.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾

مطلق شامل للعلوم النافعة في العالمين، والمعجزات والنبوة والتوراة، وقد حمل على كل منها، والكتاب الموروث إن حمل على التوراة فيناسب الأخير، والمعنى: أنه بقي من علم التوراة فيهم، وإن حمل على سائر الكتب كالإنجيل والزبور ناسبها وغيرها، و ﴿ ٱلْهُدَىٰ ﴾: ما يكون دليلًا على الشيء، والذكرى: ما يكون كذلك وكان معلومًا ثم نسي، وانتصابهما

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/٧٦).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ح).

على العلة، أو الحال، والكتب يشتمل عليهما، فإن بعضها مذكرات للكتب الإلهية، وخطاب النبي ﷺ مرتبط بوعد نصر الرسل، إذ المعنى: ينصرك كما نصرهم، فإن الله لما وعده بالنصر استحال أن يخلفه، وأكده بأن الله وعد نصر موسى، فأنجز وعده، فيكون حقًا.

وأولو الألباب: المؤمنون به، العاملون بمقتضاه.

ثم أمر بالإقبال على الطاعات، وهي منحصرة في ترك ما لا ينبغي، وهو التوبة، وفعل ما ينبغي، وهو تنزيه الله عما لا يليق به، فيستلزم الإيمان بالله وصفاته السلبية والإيجابية، والاشتغال بأعظم العبادات، وهي صلاة العصر التي هي الوسطى عند أبي حنيفة، والفجر التي هي الوسطى عند الشافعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

لما بين سبحانه جدال الكفرة إلى آخره عقبه ببيان سببه، وهو الكبر، وقيل: الحسد الذي في قلوبهم.

نزل في مشركي مكة [1]، وتكبرهم إرادة تقدم ورئاسة لا يكون أحد فوقهم، أي: ما يحملهم على المجادلات إلا كبر يمنعهم من اتباعك، وأن يكونوا تحت أمرك ونهيك، ولا يعلمون أن النبوة تحتها كل ملك ورئاسة.

ثم اعلم أنهم لا يبلغون ما يريدون أن لا يكونوا تحت يدك، ويدفعوا الآيات، ثم أمره الله أن يلتجئ إليه من كيد من يحسده؛ لأنه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون، ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما يعملون، فيجعلك نافذ الحكم عليهم، ويصونك من مكرهم. وقيل: هم اليهود، قالوا للنبي عليه السلام: إن صاحبنا [٧٧٤/ب] المسيح ابن داود -يعنون الدجال- يبلغ سلطانه البر والبحر،

(١) ينظر: بحر العلوم (٣/٢٠٠)، زاد المسير (٧/٨٦).

وتسير معه الأنهار، ويرد الملك إلينا، فالاستعاذة تكون من فتنته مخافة أن يفتتن به ضعفاء العقول.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

وجه الربط أنه مثال لجدالهم الباطل، فإن القادر على إيجاد الأضعف قادر على الأقوى، بل المساوي؛ لأن للشيء حكم مثله.

ثم إنهم يسلِّمون أن الله سبحانه خالق السموات والأرض، قادر على خلق الإنسان الذي خلقه أولًا، ثم أكثر منكري البعث لا يعرفون هذا البرهان مع كمال ظهوره، فظهر أن الكفرة يجادلون في آيات الله بغير حجة، بل بمجرد الكبر والحسد.

ثم قيل: إن الجدال الذي لا حجة معه والذي معه برهان بالأعمى والبصير، فالأول: الجاهل المقلد، والثاني: المستدل الناظر في الدليل، فهذا التفاوت بين العالم والجاهل، والتفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة والمباشر للأعمال الفاسدة.

وقلة تذكرهم معناه: أنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل، وأن العمل الصالح خير من الفاسد، غير أنهم قليلًا ما يتذكرون في النوع المعين من الاعتقاد أنه علم أو جهل، والعمل المعين أنه صالح أو فاسد، فإن الحسد أعمى قلوبهم، فيعتقدون في الجهل أنه محض المعرفة، وزيادة (لا) في ﴿ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾ للإشعار بنفي مساواته مع المحسن في الفضل والكرامة.

والواو في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عطف الموصول مع ما عطف عليه على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ وذلك لأن الوصفين يتغايران بالنظر إلى المقصود.

ثم إذا تقرر أمر البعث والقيامة أخبر عن وقوعها ودخولها في الوجود وعدم الريب فيها؛ لظهور الدلالة على جوازها، وإجماع الرسل عليها، وأكثر الناس الذين لا يؤمنون لقصور نظرهم، بهم منكرو البعث أو مطلق الناس.

وقرئ بالتاء[1]؛ لتغليب المخاطب، أو أمر النبي ﷺ، أو الالتفات.

وقيل: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا الدجال كما سبق في الاستعاذة، ولعل ذلك ثبت بنقل، فاللفظ لا دلالة له عليه. وأما قصته التي حكيت هاهنا فمشهورة في كتب الأخبار من كونه كذابًا ساحرًا مشعوذًا، يظهر للناس أشياء على خلاف العادة، وفتنته من دعوى النبوة أو الألوهية، فلا يخفى على أرباب العلم والإيمان، والتحذير إنما هو بالنسبة إلى العوام، ومن في دينه ضعف لا يميز بين السحر الذي يظهر على النفوس الخبيثة الشريرة، والمعجزة التي تظهر على الذوات القدسية، فإذا تمثل له شيطان على صورة بعض من مات، ومعه ما هو على صورة الجنة والنار، يخاف عليه أن يفتتن به، وفي الجملة يهلكه عيسى ﷺ، ويقتل مَن معه من اليهود، وقد ثبت بالنقل الصحيح أنهم سبعون ألفًا بالطيالسة [2]، وفي رواية: بالسلاح والسيف المحلى[3].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

الظاهر إرادة الاستجابة فيما إذا دعاه الإنسان فيما يعرض له من الحوائج، وحمل على التوحيد أيضًا، وهو مناسب لذكر العبادة حيث فسر بـ ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾، فإن الدعاء بمعنى

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: (تتذكرون) بالتاء، وقرأ الباقون: (يتذكرون) بالياء. ينظر: المبسوط في القراءات العشر (ص٣٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) هذه الرواية أخرجها أحمد (١٤١١٢) من حديث جابر رضي الله عنه، قال الهيثمي في المجمع (٣٠٨/٣): "رجاله رجال الصحيح". وأخرجها أيضا ابن ماجه (٤٠٧٧) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٤٩) في حديث طويل من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

العبادة قد ورد في مواضع، فعلى هذا الاستكبار: التكبر عن التوحيد والطاعة، وعلى الأول: التكبر عن الالتفات إلى طلب الحوائج، وعلى التقديرين يدخلون جهنم صاغرين؛ لأن ترك الدعاء تكبر عن إظهار العبودية. ولا يشكل بقوله تعالى: ((**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**)) [1]؛ لأن الاشتغال بالثناء الذي ذكر جلال الله أفضل من طلب الحظ لنفسه. وعن كعب: أعطى هذه الأمة ما لم يعط إلا لنبي: الشهادة على الناس، و﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١ ﴾

هو دليل على كل تقدير؛ فإن المستحق للعبادة، والسؤال من هذا شأنه، والسكون في الليل ظاهر في الاستراحة من تعب النهار، وقيل: يخلو الإنسان بنفسه، فيحاسبها.

و﴿ مُبۡصِرًاۚ ﴾ مضيئًا، أو مبصرًا فيه المتتابعة بسبب الحواس، وخلقه مظلمًا ليفيد الحواس، أو يبصركم المرئيات، ويلزم من ذلك أن يكون متفضلًا على الناس.

و﴿ ذُو فَضۡلٍ ﴾ أبلغ من المتفضل؛ وللإشعار لا يوازي فضل أحد ذكره لذلك يخلقهما، والتخصيص بتأخير عذاب الكافرين لعله لتعقيبه بعدم الشكر. وما قيل: إن برد الليل لأن الحركة الطبيعية ناشئة من الحرارة، بخلاف حركة الاختيار فإنه من الخطرات، وإسناد الإبصار إليه مجاز؛ ولذلك لم يذكره على وجه التعليل، بل جعله حالًا، فإنه يناسب الظرف، ففيه بُعد وإن أمكن، واختيار ﴿ ذُو فَضۡلٍ ﴾ على المتفضل لإرادة تعظيم الفضل بالإفضال، وعدم الشكر من أكثر الناس للجهل بالمنعم الحقيقي [٧٧٥/أ] وإغفال مواقع النعم، وحيث ورد في مواضع أُخر ما يشعر بكفران الإنسان مثل : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم:

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (١٠٦/٥)، من حديث أبي سعيد ﷺ، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب"، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٣٣٥).

٣٤]، كرر ذكر [١] الإنسان، وتقديم الليل على النهار وقد سبق في الأنعام أن الطبيعة مقدمة على الوجود به في المحدثات [٢]، وعدم رعاية النظم حيث لم يقل: والنهار لتبصروا فيه، أو بالعكس، فلِما تقرر في علم البيان أن دلالة صيغة الاسم على التمام أقوى من دلالة الفعل.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

ذكر اسم الإشارة كذكر الأوصاف السابقة، فكأنه قال: الثابت وجوده وقدرته وحكمته ورحمته بتلك الدلائل المذكورة ربكم. والإشارة إلى الذات المنفردة بتلك الصفات الثابتة بتلك الأخبار التي يصير المتأخر كالبرهان على المتقدم من كونه ربًا خالقًا لكل شيء، ثابتًا وحدانيته، كيف يصرفون عن الاعتراف بها، ويكذبون بها، ولا يخصونها بالعبادة؟! ومثل هذا الإفك يؤفك كل من لم يتأمل آيات [الله] [٣] وكذب بها.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أي: خلقها محل [٤] القرار عليها في الحياة، وفيها بعد الموت، وهي دلائل أُخر من دلائل الآفاق والأنفس، تدل على لزوم اختصاصه سبحانه بالعبادة، ووجه حسن الصورة: تناسب الأعضاء والتخطيطات، وانتصاب القامة، وظهور البشرة.

---

(١) في الأصل، و(أ، ح): (ذلك)، وما أثبته من (ن).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١].

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وهو ثابت في (ج).

(٤) في الأصل: (محال)، وما أثبته من (ج).

و﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ هي: اللذائذ، أو الحالات التي بها البقاء، يناسب أن يرتب عليها وصف الربوبية؛ فإن كل ما سواه مربوب مفتقر إليه بالذات، معرض للزوال.

ومعنى ﴿تَبَارَكَ﴾: دام، أو كثرت الخيرات منه.

و﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ لحصر الحياة فيه، وهو كذلك إذا أريد أنه يمتنع عليه الموت، وكأنه أجرى الشيء الذي يجوز زواله مجرى المعدوم.

و الحي: هو الدرَّاك الفعَّال، والأول إشارة إلى العلم، والثاني إلى القدرة.

ولمَّا وصف ذاته بما لا يتصف به غيره، أمرهم بالدعاء على وجه الإخلاص، أي: ادعوه مخلصين له الدين، أي: أخلصوا الطاعة عن الشرك والرياء، حامدين الله. قال ابن عباس: (إذا قلتم: لا إله إلا الله، فصِلُوه بالحمد لله رب العالمين)[1].

ولمَّا اتصف بصفات الجلال والكبرياء ناسب أن يكون الحمد له، ولعل ذكر ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بعده ليكون من باب ترتب الوصف على المشعر بعليه أن يحمد، ولا يحمد غيره.

﴿۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾

نهى رسول الله ﷺ أن يعبد الأصنام، وعلل ذلك بأنه قد جاءه من البينات الدالة على أن إله العالم موصوفٌ بصفات العظمة والكبرياء، وصريح العقل يشهد بأنه لا يليق العبادة إلا به، وأنَّ جعل هذه الأحجار والخشب المنحوتة شركاء لله مستنكر، وأمر بأن ينقاد لرب العالمين، ويخلص له الدين؛ إذ الشكر نعمة التربية الشاملة لجميع ما سوى الله سبحانه، وأدلة العقل وإن كانت سابقة على هذه البينات، لكنها جاءت مقوية لأدلة العقل،

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٨١/٢٤)، والحاكم في المستدرك (٤٧٦/٢)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه".

ومضمنة ذكرها نحو: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، فذِكْرها ذكرٌ لأدلة العقل والنقل جميعًا.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قيل: آدم، وقال في "المفاتح" [(١)]: عندي أنه لا حاجة إليه؛ لأن كل إنسان مخلوق من المني، ومن دم الطمث، والدم ينتهي إلى الأغذية، المنتهية إلى النباتية والحيوانية، المنتهية إلى الترابية، ومراتب عمر الإنسان ثلاث: الطفولة التي هي زمان النشوء والنماء، والأشد وهو زمان كمال النشوء من غير ضعف، والشيخوخة وهي زمان التواجع والضعف.

و﴿طِفْلًا﴾ لتأويل كل واحد، أو واحد بعد واحد، أو لإرادة الجنس. وقيل: يحتمل قبل الشيخوخة، وقبل هذه المراتب.

﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ تقديره: يبعثكم لتبلغوا، وكذلك التقدير: و ﴿لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾. وقيل: عطف على ﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾.

ويقرأ: ﴿شَيْخًا﴾ و﴿شِيُوخًا﴾ بكسر الشين[(٢)].

ويفعل ذلك لتبلغوا أجلًا مسمى، هو وقت الموت، أو يوم القيامة، ولعل وجهه أن يراد المجموع، وكل ذلك ليتفكروا في عجائب صنائعه ويعتبروا بها.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

أي: كما أن تلك الانتقالات في الأطوار الثلاثة تدل على الإله القادر، فكذلك الإحياء والإماتة.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧/٧٤-٧٥).

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري (٤/١٨٢).

والفاء الأولى للإشعار بأن الله سبحانه لم يحتج في إحداث هذه الحالات إلى أداة، بل يفعله من غير مدافع، فعبر عن نفاذ قدرته في الكائنات بما إذا قال: له كن، فيكون. [٧٧٥/ب] وإن تعلق بالإحياء والإماته لعدم التدرج هنا بخلاف تلك الأطوار.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قيل: تكرار المجادلة ثلاث مرات في السورة، قيل: إما لاختلاف المجادل، أو المجادل عنه، أو للتأكيد.

ولقائل أن يقول: هذا استفهام تعجيب واستبعاد، وفي كل موضع ذكر الجدال فإما أن يكون عقيب دلائل وآيات يكاد يستحيل الجدال معها لوضوحها، أو ذكر بعده تلك الدلائل فلا تكرار بهذا الاعتبار.

وذكر ﴿إِلَى﴾ مع الرؤية لعله لكونها بمعنى: النظر.

و﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ معناه: على أي حال يصرفون عن التصديق بآيات الله؟!

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

إن حمل الكتاب على القرآن فما أرسل به الرسل سائر الكتب السماوية، وإن أريد بالكتاب الجنس فما أرسلوا به الأنسب أن يراد به: الوحي والشرائع.

وذكر عقابهم بسبب التكذيب مجملًا بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾، ومفصلًا بكون الأغلال في أعناقهم.

و﴿إِذِ﴾ إنما يصح أن يكون ظرف ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن المعنى: وإن كان على الاستقبال لكنه عبر عنه بلفظ المضي لتحققه على طريقة: ونادى. وعطف السلاسل على الأغلال أولى من جعله مبتدأ؛ لأن يلزم حذف العائد؛ إذ التقدير: يسحبون بها، وهو على الأول حال.

ويقرأ بالنصب، و﴿ يَسْحَبُونَ ﴾ ببناء الفاعل، وتقديم المفعول [1]، وفيه ضعف من جهة عطف الفعلية على الاسمية.

ويقرأ بالجر[2]؛ لأن التقدير: إذ الأغلال في أعناقهم، بمعنى أغلالهم في الأعناق.

ويقرأ بالباء[3]، فهي قرينة جواز إضمارها، ونظيره:

مَشَائيمُ ليسُوا مُصْلِحينَ عَشيرةً *** وَلاَ نَاعِبٍ[4]

أي: بمصلحين.

ويقرأ: و﴿ بالسَّلاسِلِ يسحَبون ﴾[5].

و﴿ ٱلْحَمِيمِ ﴾: الماء المسخن بنار جهنم، والسجر: الإيقاد في التنور، أي: النار محيطة بهم، أي: يحرقون، من سَجَرَ التنور إذا ملأه بالوقود، ومنه: السجير للصديق، كأنه سجر بالحب، أي: ملئ، والمراد: بيان بنوع عذابهم.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

(١) عن ابن مسعود وابن عباس وابن أبي عبلة ويحيى بن وثاب. ينظر: شواذ ابن خالويه (ص ١٣٣)، شواذ القراءات للكرماني (ص٤١٩).

(٢) أي: (والسلاسلِ)، عن كرداب. ينظر: شواذ القراءات للكرماني (ص٤٢٠).

(٣) أي: (وبالسلاسلِ). ينظر: الكشاف للزمخشري (١٨٣/٤).

(٤) هكذا في جميع النسخ لم يكمل البيت، وتمامه:

مَشَائيمُ ليسوا مصلحينَ عشيرةً *** ولا ناعبٍ إلاَّ ببينٍ غُرابِها

والبيت للأحوص اليربوعي، قال ابن منظور: "أنشد سيبويه للأحوص اليربوعي..." وذكر البيت، لسان العرب (١٢/ ٣١٤). ويروى: (بشؤم غرابها) بدلًا من (ببين غرابها).

(٥) ينظر: الكشاف للزمخشري (١٨٣/٤).

أي: يقول لهم الخزنة قبل أن تقرن بهم آلهتهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ فأجابوا بأنها غابت عنَّا، فلا نراها، أو لا نجد ما كنا نتوقع منها، ثم أضربوا وقالوا: تبين لنا أنها لم تكن شيئًا يعتد به، كما يقال: حسبت أنه شيء، فإذا هو ليس بشيء، أو لم نكن نعبد شيئًا بعبادتهم.

ولا يشكل ضلالهم بأنهم مقرونون بالآلهة في دلالة ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لجواز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا بقول: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أو لا يكونوا معهم في كل الأوقات، أو حيث لا ينتفعون بهم، فكأنهم ضلوا عنهم.

وقيل: يجوز أنهم أنكروا عبادتها، مثل: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

و﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾ أي: مثل هذا الضلال، والإضلال عن طريق الجنة وإضلالهم عن الآلهة حتى لو طلبوها لم يجدوها خلاف الظاهر بل المناسب عن الحجة والإيمان.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

الإشارة إلى الإضلال، أو العذاب بسبب بطركم وتكبركم بالباطل. وقيل: الفرح: السرور، والمرح: البطر، أو الفرح: الإفراط في إظهار السرور، والمرح: الخيلاء والإعجاب، أي: هو مسبب عن تكذيبكم الأنبياء، وشرككم وكفرانكم النعم. ويقال: لهم تلك الأبواب السبعة المُعَدَّة لكم، فبئس منزل المتكبرين عن الحق جهنم.

والعدول عن أصل النظم، وهو مدخل المتكبرين إلى المثوى؛ ليقيد الدخول بالخلود، فالتعبير عنه بالمثوى للإشارة إليه.

و﴿ خَٰلِدِينَ ﴾ أي: مقدرين الخلود، ثم سلَّى النبي ﷺ، وأمر بالصبر على عداوة الكفار بأن وَعْد الله بهلاكهم أمر كائن، فإما أن ترى بعض ذلك كالقتل والأسر يوم بدر، وإما أن نتوفينك قبل ذلك، فإذا رجعوا إلينا انتقمنا منهم أشد الانتقام.

ومن هنا تبين أن قوله: ﴿ فَإِلَيْنَا ﴾ متعلق بـ﴿ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾، وجزاء ﴿ نُرِيَنَّكَ ﴾ محذوف، أي: فإما نريَنَّك بعض العذاب الموعود كالقتل فذاك، وزيادة (ما) لتأكيد الشرط؛ ولذلك اختصَّ لحوق النون المؤكدة بالفعل عند زيادتها.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

هذا لتأكيد أمر الصبر على مشاق الكفرة، لا سيما المجادلين، فإن المعنى: إنا أرسلنا قبلك رسلًا علمت حال بعضهم لذكْرِنا إياهم، ولم تعلم حال البعض. فإنه قيل: إن عددهم مئة وعشرون ألفًا، لا يعلم حصرهم. وقيل: ثمانية آلاف، وأربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من غيرهم [٧٧٦/أ]، وعن علي رضي الله عنه: (فيهم نبي أسود أو حبشي)(١).

والمقصود أنهم خصوا بآيات ومعجزات، فكذبتهم أممهم، وطلبوا منهم آيات مقترحة، ثم إن الله لم يظهرها إلا بحسب ما اقتضته حكمته، ولا يقدح في نبوتهم، وليس لهم أن يأتوا بها إلا بعد الإعطاء والإذن في الإظهار، قياس بأولئك الرسل في الصبر حين سألك أهل مكة أن تأتي بآية.

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٨٧/٢٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١١١٩/٤)، والطبراني في الأوسط (١٢٧/٩) برقم (٩٣١٩)، قال الهيثمي: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن أبي ليلى، وهو سيئ الحفظ، وبقية رجاله ثقات". مجمع الزوائد (٢٢٧/٧)، وقال ابن عطية: "وهذا إنما ساقه على أن هذا الحبشي مثال لمن لم يقص، لا أنه هو المقصود وحده فإن هذا بعيد". المحرر الوجيز (٥٧٠/٤).

و﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ إما بعذابهم، وقضاء الحق هلاكهم ونجاة المؤمنين، أو القيامة وقضاء الحق أن لا يظلموا، أو الآيات المقترحة فيستأصلوا، أو المبطلون حمل على المجادلين للسياق، أو المعاندون بالاقتراح.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

قيل في الربط: إنه لما أطنب في ذكر الوعيد رجع إلى ذكر الإله الحكيم الرحيم، والأولى أن يقال: لما سبق ذكر إرسال الرسل -وهي نعمة أخروية- عقبها بالنعمة الدنيوية، وأن كل منهما لم يخل عن الأخرى.

حمل الأنعام على الثمانية في سورة الأنعام[1]، وهو أولى من الحمل على الإبل نظرًا إلى الوضع، وأيضًا المعنى: بعضها يركبون، وبعضها يأكلون، وكل جنس لمعنى؛ كالإبل للركوب، والغنم للأكل، والمنافع الأخر: الألبان، والأوبار، والشعور، والجلود.

وإدخال اللام على الفعلين دون غيرهما [2] قيل: لأن الركوب والبلوغ قد يكونان لمنافع دينية، بخلاف الأكل وإصابة المنافع، فإنهما من المباحات.

ولقائل أن يقول: هذا ليس بقوي؛ لأن أكثر منافع الركوب من قبيل الدنيوية، وبلوغ الحاجة أيضًا كذلك، ثم إن المنافع تشمل المنافع الدينية كأداء الزكاة وصدقة النفل. نعم، لو قيل: إدخال على ما هو أعظم الفوائد باعتبار الشمول لم يبعد، أو لأنه لما ذكرت في المتقدمين كان في تكرارها ثالثة ورابعة نوع بشاعة، وإنما لم يقل: (في الفلك) نحو: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ [هود: ٤٠]، والشيء الذي يوضع فيه يقال فيه: وضع فيه وعليه، وفي ذكر (على)

(١) يشير إلى الآية (١٤٣) من سورة الأنعام.

(٢) في قوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوا﴾، ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾.

رعاية المزاوجة، وأيضًا الفلك وعاء، ومعنى الاستعلاء حاصل، فيصح الاستعمالان، والاستفهام فيه معنى الإنكار؛ لأن ما من آية من هذه الآيات يمكن أن تنكر لظهورها.

و(أي) في المؤنث هي اللغة؛ لأن رعاية التأنيث في الجوامد قليل، مثل حمار وحمارة، وفي (أي) أبعد لما فيه من الإبهام ونصبها بـ ﴿تُنكِرُونَ﴾، ولو قدر متعلقًا بضميره، مثل: إن زيدًا ضربته، كان الأولى رفعه كذا ذكره سيبويه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَـٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

هذا نوع تخويف لمنكري الآيات، المجادلين المنكرين بأنه إن كان اعتمادهم في الرئاسة والتقدم على العز بالمال والجاه، فلو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين البوار، مع كثرة عددهم بالأخبار والعلم بالآثار الحصون العظيمة مثل: الأهرام بمصر، والبلاد العظيمة من نبأ الملوك المتقدمين، وما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الحجر: ٨٢] وما في (ما) في (ما أغنى) نافية، أو ضمنت فيها معنى الاستفهام، أي: أيّ شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم؟ ومحل (ما) نصب، والفاء مفيد السببية؛ لأن عدم الإغناء كالنتيجة لكونهم أكثر منهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾

أي: لما جاءتهم المعجزات على أيدي الرسل فرح الكفار بما عندهم من الشبهات التي اعتقدوها العلم، نحو: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] و﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ﴾ [يس: ٧٨] ونحوها، ولم يلتفتوا إلى علوم الأنبياء، أو علم التجارة وتدبير أمور الدنيا. وقيل: يجوز أن يكون المراد علوم الفلاسفه؛ فإنهم إذا سمعوا بالوحي دفعوه، وصغروا علم الأنبياء بالنسبة إلى علومهم، وعن سقراط أنه سمع بمجيء بعض الأنبياء، فقيل: لو هاجرت إليه؟ فقال: نحن قوم مهديون، فلا حاجة بنا إلى من يهدينا.

ورأيت في كتاب "المنهاج" لأبي عبد الله الحليمي أنه كان مولعًا بالعلم الرياضي، ووقع إشكالات فلم يجدها عنده، ولم يعلم أن نظر الأنبياء إلى المعارف الإلهية، فكفر به.

وإذا جعل الضمير للأنبياء فالمعنى أنهم لما رأوا إعراض الأمم وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم، فرحوا بما أوتوا من العلم، والفاء إنما جيء بها لأن قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ ﴾، وسبب الفرح أنه لما جاءهم علوم الديانات وما فيها من التكاليف ورفض الشهوات، لم يلتفتوا إليها، واعتقدوا أن لا علم أنفع من علمهم، ﴿ فَرِحُوا۟ ﴾ به وحاق بالكافرين جزاء استهزائهم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [٧٧٦/ب]

أي: لما رأوا شدة عذابنا، أي: تبرأنا من عبادة الأصنام التي قد أشركناها بالله في العبودية، فلم ينفعهم ذلك؛ لأنه إيمان الاضطرار؛ ولهذا المعنى قال: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ ﴾ ولم يقل: لم ينفعهم؛ إذ المعنى: لم يصح ولم يستقم، نحو قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ [مريم: ٣٥].

والفاء في ﴿ فَلَمَّا ﴾ و﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ ﴾ للسببية؛ لأن رؤية البأس بسبب مجيء الرسل، والكفر بهم وعدم نفع الإيمان سببه رؤية البأس.

و﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ﴾ من المصادر المؤكدة، أي: سن الله هذه السنة، وقد مضت في الأمم، وهي عدم نفع الإيمان عند رؤية البأس أو عذاب الكفار.

و﴿ هُنَالِكَ ﴾ أصله للمكان، استعير للزمان، أي: هلك الكافرون وقت رؤية العذاب، أو ظهر لهم الهلاك بحيث لم ينفعهم الإيمان الذي هو أساس الخيرات، والله أعلم.